الفصل الثاني

المقصَدُ

(ضابطه ـ سبل الكشف عن المقاصد وصلتها بالمطالع ـ دور علم المناسبات ـ دور تسمية السورة ـ دور المفردات الخاصة بالسورة ـ دور قصص النبيين ـ دور الموضوعات المشتركة ـ دور مشتبه النظم ـ دور الموضوعات الخاصة بالسورة ـ دور خاتمة السورة ـ دور بيان النبوة ـ دور سبب النزول)

أولا : ضابطه :

المقصَدُ لغة : مصدر ميمى بفتح الصاد من قصد ، والقصدُ هو الاعتماد والأمّ ، ويقال : تنجزت منه أغراضي ومقاصدي ، وليس من القصد الذي هو الاعتدال والاستقامة كالذي في قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ ومعناه الطريق المستقيم .

وهو بكسر الصاد (مقصِد) اسم مكان يقال : بابك مقصِدي أي موضع غرضي[1] : والمقصود اسم مفعول من (قَصَد) ، والمقصَد جمعه مقاصد .

---

(١) راجع : أساس البلاغة والمفردات في غريب القرآن ولسان العرب والمصباح المنير والمعجم الوسيط مادة (قصد) .

والمقصَد في السورة القرآنية : هو الغرض الذي تتظاهر تراكيب السورة على بيانه ، وهو مقصد بياني غير المقاصد الشرعية المقررة عند أهل الأصول من حيث كونها قسمين أحدهما يرجع إلى قصد الشارع والآخر يرجع إلى قصد المكلف[1] إلى آخر ما ذكروه ، وقد بينا بكلام العلماء أن للسورة مقصَدا واحدا يدار عليه أولها وآخرها[2] ، وهو المتساوق مع بيان القرآن الكريم واستكشاف هذا الغرض أمر شاق جدا ، وتحديده بالبيان عنه جليل الخطر .

ثانيا : سبل الكشف عن المقاصد وصلتها بالمطالع :

دور علم المناسبات :

إن نسق سور القرآن الكريم هكذا عند الله في اللوح المحفوظ فيما ذهب إليه جمع من العلماء[3] ، وسور القرآن الكريم في مواقعها تكون نورا ممتدا مما قبلها ، ونورا لما بعدها ، وهو الأمر الذي انتهينا إليه بالدرس البياني في استحالة التقديم والتأخير في أنساق السور ، كما حاولنا إبصاره مثلا في سورة المطففين في الكلام على موقعها في الكتاب العزيز ، وطريقة العلماء في استكشاف مقاصد السور النظر إلى سياقها في القرآن الكريم وراجع في ذلك كتب المناسبات ، فإنك تجد دائما أنهم يقولون : لما قال في السورة الماضية كذا قال هنا كذا ، وكذا البقاعي في تحديد

---

(١) راجع : الموافقات في أصول الشريعة ٢/٥ وما بعدها .

(٢) راجع : في الأطر العامة للكشف عن العلاقات (وحدة الغرض في السورة القرآنية) .

(٣) راجع : هذا الموضوع في فصل فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم من هذا البحث .

مقاصد السور يسترشد بمواقع السور في تحديد مقصودها ، وقد بينا ذلك بالدرس البياني في سورة قريش أيضا ، فقد وقعت بين سورتي الفيل والماعون ، وحادثة الفيل من أسباب الإيلاف ونتائجه ، والذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف هو المحاسب الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، وترى سورة الحج تختم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾ وتفتح (المؤمنون) بقوله : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ ، وهكذا شأن سور القرآن الكريم قاطبة ، فإن المجاورة بين السور تومئ إلى تقارب مقاصدها ، وكأن كل سورة تمهد للأخرى ، فسورة الحج مقصودها : الحث على التقوى وسورة المؤمنون مقصودها : اختصاص المؤمنين بالفلاح الذي هو نتيجة التقوى وهما متقاربان كما ترى ، فكل غرض يكون مما قبله ومما بعده بسبب ، ولعلك على ذكر مما قاله العلماء في سورتي التوبة والأنفال ، وأن قصة التوبة شبيهة بقصة الأنفال ، وكان سقوط البسملة معينا لهم على هذا القول ودائما مقدمات السور ومطالعها تتناسق بخاتمة التي قبلها .

دور تسمية السورة :

والأمر هاهنا جار أيضا على أن أسماء السور توقيفي ، لذا كانت تسمية السورة من الوسائل الهادية إلى استكشاف مقصود السورة ، وقد ذكروا أن تسمية السورة بجزء منها من المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية من تسمية الكل باسم الجزء ، وقد اشترطوا للجزء أن يكون له مزيد خصوصية ، وهذه الخصوصية تكون بدلالته على المقصد الأصلي للسورة ، قصة البقرة مثلا التي جاءت دليلا للبعث في سورة البقرة لم سميت بها

السورة ولِمَ لَمْ تسم مثلا بسورة الحمار؟ أو سورة إحياء الأطيار أو غير ذلك؟ وموقع الاستدلال للبعث من مقصود السورة كما عرفت ، لا ريب كانت قصة البقرة أكثر قصص الإحياء بعد الإماته ظهورا لدى القوم إذ تمت أمامهم جميعا ، لذا فقد عقب عليها بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً** ﴾ في سورة البقرة ، وسورة النحل على طولها لم يذكر فيها النحل إلا في آية واحدة ، ومع ذلك فقد سميت بالنحل ، ومقصود السورة في بيان تمام علم الله وقدرته ، وقصة النحل أدل شيء في السورة على تمام قدرته سبحانه وتعالى ، لذا جاء بناؤها اللغوي من المطلع بسبب تدبر آية ما بعد المطلع ﴿ **يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ...** ﴾ ثم بين أن العجب في النحل الذي ترونه ، إنما هو وحي إلهام وإرشاد ﴿ **وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ** ﴾ .

وكذلك سورة يونس لا تجد فيها ذكرا ليونس إلا في آية واحدة والسورة طويلة ﴿ **فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا** ﴾ وكشفه دليل على أنه من عند الله ، لأن السورة في بيان وصف الكتاب بأنه من عند الله ، فجاءت قصة يونس في السورة على قصرها ظاهرة الدلالة على المقصود ، ولو سميت كل سورة بأكبر جزء منها ، لكان لذلك تعليل قريب ، لكن الغريب أن تسمى السورة بأصغر جزء منها . سورة هود مثلا سميت بقصة هود عليه السلام ، مع أنه لم يكثر ذكره كثرة ذكر نوح عليه السلام ، إلا أن قصته عليه السلام كانت أدل شيء على غرض السورة ، لذا تميزت عن سائر أخواتها في السورة بظهور اتصالها بالمطلع ، قال تعالى : في الجملة التابعة للمطلع

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وهو قول هود لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

سورة المطففين مثلا سميت بلفظ منها ، ومع ذلك هو قطب السورة وعمودها الذي دارت عليه تراكيب السورة بعد ، فدائما تراكيب ما سميت به السورة ينظر إليه مقارنا بتراكيب المطالع مقارنا أيضا بنظائره في الذكر الحكيم ، فهو عند النظر يمتاز بخصوصيات لا يمكن أن توجد في مواطن أخرى ، وتكون وثيقة الصلة بمطلع ما جاءت في سياقه ، وهو إنباء بأن بيان السورة من أولها ينتظمه سلك واحد ، يضع القرآن معالمه الدالة عليه بين الحين والحين ، وتكون أظهر شيء فيما سميت به السورة .

وليس تعدد أسماء السور قادحا في هذا الوجه ، بل إن تتعدد الأسماء يكون أكبر معين على الإلماع إلى جوانب وخصوصيات في السورة ، قد لا تفتح بغيرها ، فإن تعدد أسماء سورة التوبة وتسميتها بالمقشقشة والفاضحة والحافرة وغير ذلك ، كان كاشفا عن سيما آياتها في المنافقين حين التنظير بينها وبين نظائرها من آيات النفاق في الذكر الحكيم ، وكذلك سورة الإخلاص ، كان قول النبي ﷺ (الله أحد الله الصمد) كاشفا عن معجمها اللغوي الذي بدلالته عدلت السورة ثلث معاني القرآن ، وتلك الطريقة هي التي بنى عليها البقاعي ـ رحمه الله ـ كتابه الموسوم (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) .

دور المفردات الخاصة بالسورة :

من الوسائل الهادية إلى تحديد المقصود جمع المفردات الخاصة بالسورة لأن المفردات الخاصة بالسورة ، تكون معلما على المقصد الخاص بها ، لا سيما إذا تميزت المطالع بمفردات خاصة أيضا ، ولكل سورة معجمها اللغوي الذي تمتاز به عن نظائرها ، طالت هذه السورة أم قصرت ، أرأيت إلى سورة الإخلاص وكيف كان لها معجم ﴿ **ٱلصَّمَدُ ـ كُفُوًا** ﴾ وكذلك سورة الفلق ﴿ **غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ـ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ـ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ وسورة الناس ﴿ **ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ** ﴾ وسورة قريش ﴿ **لِإِيلَٰفِ ـ قُرَيْشٍ ـ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ** ﴾ والمطففين ﴿ **سِجِّينٍ ـ عِلِّيِّينَ ـ مَّرْقُومٌ ـ تَسْنِيمٍ** ﴾ وغير ذلك ، وقد جاءت هذه الألفاظ متقابلة مع المطففين في المطلع وكذلك في سورة الأنبياء تراها تذكر الغفلة في المطلع ﴿ **ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** ﴾ وترى لفظ الذكر مقصودًا به القرآن قد انتشرت انتشارا غير معهود في السور الأخرى داخل السورة الكريمة .

وكذلك سورة مريم تذكر الرحمة في المطلع ، وترى ـ تناسجا معه ـ تكرار لفظ الرحمن في السورة الكريمة ست عشرة مرة ، ووقع لفظ الرحمة أربع مرات ، وتكرر قوله : ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ تكرارا لا نظير له تناسبا مع تصدير السورة بقوله : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ** ﴾ وهذا المنهج في استقراء ما شاع من الألفاظ في السورة شيوعا امتازت به عن نظائرها ، ثم لَحْظ المناسبة بينه وبين المطلع ، أمر بالغ في الدلالة على السلك الخفي الذي انتظم بيان سورة القرآن الكريم .

دور قصص النبيين :

وهو أكثر السبل بيانا عن مقاصد سور القرآن الكريم ، ويدل توزع حلقات قصص النبيين ، لا سيما النبي الواحد على عديد من السور على أن القصص ليس مقصدا تسعى أي سورة بتراكيبها إليه ، كما يدل تكرر الحلقات باختلاف في الأسلوب وهيئات البناء على أن كل حلقة تتلون ما سيقت في بيانه من المقاصد ، ولذا كان تدبر قصص النبيين من الوسائل الهادية إلى استكشاف مقصود السورة القرآنية فقصة آدم عليه السلام تكررت في عدة مواضع ، واستأثرت سورة البقرة بقصة تعليم آدم عليه السلام الأسماء ، ثم عرض الأشياء على الملائكة ، فقد تلون بلون استئثارالله سبحانه ـ بعلم الغيب حتى لو كان المدعي ملكا مقربا ، وقل مثل ذلك في قصة صعق السبعين من قوم موسى ، وقصته مع البقرة ، وقل مثل ذلك في محاجة إبراهيم عليه السلام النمرود ـ لعنه الله ـ وكيف جاءت مشتملة على إثبات قدرة الله على الإحياء بعد الإماته ، وقصته مع الأطيار وقصة صاحب الحمار ، وكله مما اختصت به السورة الكريمة ، وعلاقته بالمطلع على ما عرفت وكذلك الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وكيف جاءت مشتملة بالرحمة ، ومشعة باللطف في الرد على أبيه ـ لأنها جاءت في سياق خص الله بشمول الرحمة وتكرار النداء (يا أبت . . . .)[1].

وقل مثل ذلك في محاجة إبراهيم قومه في آلهتهم كيف جاءت القصة متناسبة مع المطلع ومع الغرض ، وجاءت في إطار المحاجة الذي ألمع إليه مطلع السورة الكريمة بقوله : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ والعادل بربه محاج .

---

(١) راجع : في الافتتاح بحروف التهجي في سورة مريم .

وفي الحلقات التي تتكرر يتلون الأسلوب بلون ما سيق فيه ، وقد يعقد بمعالم ظاهرة بالمطلع تدبر مطلع سورة طه ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ ثم تدبر الحلقة المذكورة في سورتي البقرة والأعراف من قصة آدم عليه السلام قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ وقال أيضا : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ .

ونفس الآية في سورة البقرة : ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (٣٨) وكأن القرآن الكريم يلفتنا إلى مقارنة الأسلوب في الموضعين واستبصار علل هذه الفروق الظاهرة .

وترى نفس القصة في استئثار سورة طه بحديث المؤانسة ، ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ ... ﴾ لأن سياق السورة سياق ملاطفة ، من ذلك أيضا ما تراه في سياقة قصة مريم عليها السلام في مقصود التوحيد في آل عمران ، وسياقتها في مقصود وصف الله بشمول الرحمة في سورة مريم كما بيناه في موضعه ، هذا والموضوع واحد والحلقة واحدة ، وكذلك سياقة قصة زكريا عليه السلام في نفس الموضعين بتقديم وتأخير في الأسلوب ، ففي تعجبه من البشارة يقول في آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٤٠) وقال في مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ (٨) والقصة واحدة ، وغير ذلك واختصاص كثير من السور بحلقات من القصص أمر ظاهر جدا في الذكر الحكيم .

والمعين على استكشاف العلاقة أن تُرْصَدَ الفروق بكل دقة في الحلقة المذكورة في الموضع الآخر ، وأن يوازن بينها وبين نظيرتها في موضعها ، وأن يُجْتَهَدَ في تفسير هذه الفروق ، وقد تكون الحلقة من خصائص السورة وحينئذ يجتهد في تفسير اختصاصها بالسورة ، ولمح سيما بيان السورة فيها وحاجة المقصد الأصلي إليها ، لأن من سور الذكر الحكيم ما تشتمل القصص على أكثره كسورة الأعراف وهود مثلا ويوسف حتى يظن أن القصص هو مقصد السورة ، وليس كذلك ، وإنما هو سبيل البيان عنه ، وسلوك منهجي التحليل والموازنة معين على كشف الفروق ، وعند التحقق ترى كل ذلك متصلا بمطالع السور ، وتدبر استئثار سورة التوبة بغزوة حنين ، التي جاءت في سياق معاداة من أعرض عن الله ورسوله حتى لو كان المعادي أبا أو أخا أو ابنا ، وكان الإبقاء على وده طمعا في الاستكثار به رغبة مكتمة ، فجاءت قصة الغزوة كاشفة أنه لا عبرة بالكثرة ، ألا تذكرون يوم حنين إذ كنتم كذا وكذا ، تدبر كيف جاءت القصة موصولة بهذا الأمر القاطع في المطالع [(براءة) من الله ورسوله ...] وهكذا كما بيناه في مواضعه بكلام العلماء بفضل الله تعالى ومنه .

دور الموضوعات المشتركة :

تجد كثيرا من الموضوعات يتكرر ذكرها في سور الذكر الحكيم ، وهي حينئذ تكون سبيلا للبيان عن المقصود ، فلا يكون مقصدا للسورة ، وتجد ذلك ظاهرا في آيات الترغيب والترهيب والثواب والعقاب واليوم الآخر ، وتعداد نعم الله ، إلا أنك تجد هذه الوسائل جميعا لا تتفق اتفاقا تاما في المواضع التي تكررت فيها ، وإنما تتسم بسيما ما جرت في سياقه من المقاصد فمثلا وصف صحف الأعمال تجد في الحاقة قوله : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ**

﴿ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ . . . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ وتجد الحديث متقاربا معه في نفس الموضوع في الانشقاق ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . . .﴾ وتجد الحديث عن صحف الأعمال في سورة المطففين بغير هذا الوجه ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ . . . كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[1] وقد جاء متناسجا مع المطلع ومع مقصود السورة كما بيناه في موضعه والتراكيب وفروقها هي التي تكشف سيما بيان السورة وصلة الموضوع المشترك بسياقه ، تأمل مثلا قوله في سورة الحج في سياق الحث على التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ فقد دل سياق السورة على أن الآية مسوقة

(١) راجع : الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين من هذا البحث .

في الاستدلال على البعث كما بيناه في موضعه تدبرنفس الآية في سورة المؤمنون ، وقد جاء في سياق بيان ضعف الإنسان تناسقا مع الخشوع المذكور في المطلع والمعقب الفلاح ، وتقابلا مع الاستكبار المعقب الخسار في السورة قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ فكان الاستدلال للبعث غرضا ثانويا للآية هاهنا[1] والأمر كما يظهر واضح الفرق .

ويتبع في كل ذلك منهجا التحليل والموازنة ، وأرجو أن أكون قد وفقت في بيان ذلك في مواضعه من الدراسة ، وهو ظاهر جدا في التشبيهات المتنوعة فقد شبه وقوع الساعة في السرعة في موضعين ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في سورة القمر وقوله : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ في سورة النحل ، والثاني أقوى في الدلالة على السرعة من الأول ، وكل متناسب مع سياقه . فالنحل مفتتحة بـ ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ والقمر مفتتحة بقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ .

وكذلك تشبيهات انتشار الناس يوم القيامة ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ في القمر تناسبا مع الافتتاح ، وفي القارعة ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ تناسبا مع الافتتاح أيضا .

---

(١) راجع : في الافتتاح بالنداء سورة الحج ، وفي الافتتاح بالجملة الخبرية سورة المؤمنون من هذا البحث .

كذلك تشبيهات السماء عند قيام الساعة ترى الأنبياء استأثرت بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ وهو متناسب مع ما تفردت به السورة من قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[1] وهو متناسب مع الافتتاح بقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ...﴾.

دور مشتبه النظم :

وهو من المعالم المنادية على اختصاص كل سورة بغرض ، وهو حين وجوده أيضا معلم على تقارب غرضي السورتين تأمل مثلا في سورة آل عمران في قصة البشارة بالملائكة في غزوة بدر ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (١٢٦) وقال تعالى في سورة الأنفال في نفس البشارة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠) وقد جاءت بفروق في التراكيب ذكرناه في موضعها من الدراسة ، كان مجيئها في السورتين دالا على تقارب السياقين وقد ذكرنا أن مشتبه النظم ألمع إلى أن سورة الأنفال تجري في الرافد الثالث من مطلع آل عمران[2] (القيوم) لأن تراكيب آيها تتظاهر على بيان تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وهو قريب مما يلمع إليه الإيمان بقيومية الله من التوكل ، وجاء في السورتين ما يعقد هذه الصلة بمشتبه النظم في قوله في آل عمران ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقال في الأنفال : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن

---

(١) راجع : في الافتتاح بالجملة الخبرية سورة الأنبياء من هذا البحث .

(٢) راجع : في الافتتاح بالجملة الخبرية سورة الأنفال من هذا البحث .

قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٥٢) وقال أيضا : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ (٥٤).

فتجيء دقائق التراكيب في مشتبه النظم متناسجة في السياق الجارية فيه ، وكشف ذلك التناسج يحتاج إلى اجتهاد وصبر .

دور الموضوعات الخاصة بالسورة :

وهي من المعالم المنادية على غرض السورة ، وتكون ألصق بالغرض من الموضوعات المشتركة ، لذا يجب الصبر على تأمل تراكيبها وموادها ، ترى مثلا سورة الأنفال تختص بالاستعارة التمثيلية في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وتجد صداها في قوله : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ وهي وثيقة الصلة بغرض السورة الذي هو تبرؤ العباد من الحول والقوة .

وكذلك تتفرد سورة النحل بقوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وتجد صداها في قوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وتجدها تتناغى مع بناء المثل في قوله : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ وكل ذلك يتواصل مع قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ والسورة مسوقة لبيان تمام علم الله وقدرته ، وكل حرف في السورة الكريمة ينهض بخيط في البيان

عن هذا المقصد ، شأن سور الذكر الحكيم قاطبة ، وقد بيناه في مواضعه من الدراسة بفضل الله ومنه .

فلا غناء عن جمع المعاني الخاصة بالسورة ، وبيان صلتها بالمطالع وفق تراكيبها ، فمقصود سورة النساء مثلا المواصلة ، لذا ترى الحديث عن الميراث من ألصق آي السورة اتصالا بهذا الغرض ، وكذلك أحكام العدل مع النساء وكذا اختصاص السورة بِعَدِّ المحرمات من النساء إلى آخره ، من عقوبة آكل مال اليتيم ، وختم السورة بالحديث عن الميراث .

ويجاب في كل هذا عن سؤال : لماذا اختصت هذه السورة بكذا؟ وما صلة ما اختصت به بالمطلع؟

دور خاتمة السورة :

تأتي الخواتيم في سورالقرآن دائما ناظرة إلى المطالع ، وتنهض بعقد الصلة بين السورة السابقة والسورة اللاحقة ، وكثيرا ما يذكر العلماء عند خواتيم السور أنها كجملة واحدة ، المطلع طرفها الأول والخاتمة طرفها الثاني .

بل قد ذكر العلماء أن قوله تعالى في خاتمة سورة إبراهيم : ﴿ **هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ . . .** ﴾ معطوف على قوله في أول السورة : ﴿ **لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . .** ﴾ أول السورة .

وكثيرا ما تكون الخواتيم مترجمة عن المطالع تأمل مطلع سورة يوسف ﴿ **نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ** ﴾ وخاتمة السورة ﴿ **لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ وترى سورة

براءة قد ختمت بعين ما افتتحت به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ ﴾ ، وذلك مؤذن بأن تراكيب السورة تجرى في سبيل واحد ، فلا غناء في تحديد المقصود واستكشاف علاقته بالمطلع من التأمل في خواتيم السور ، ولحظ الفروق في التراكيب إذا كانت الخاتمة متضمنة ما جاء في مطلع السورة الكريمة .

من ذلك أيضا ما جاء فيما ختمت به المائدة من قصة المائدة وفيه من العهد بين المسيح عليه السلام والنصارى ما يذكرنا بالمطلع : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ . . . ﴾ .

دور بيان النبوة :

بيان النبوة من الوسائل الخارجية في تحديد المقصود ، أو الكشف عن خصيصة للسورة ، كما ذكرناه في سورة الأنعام من بيانه ﷺ أن فيها دحض حجج المشركين ، ومن بيانه أيضا عند سورة الإخلاص (الله أحد الله الصمد) تعدل ثلث القرآن ، ولا أنفس من كلمته ﷺ في تسمية فاتحة الكتاب بأم القرآن ، والتي حددت مطلع كتاب الله وسَنَّتْ للعلماء طريقا لدراسة هذا الباب في الذكر الحكيم .

فلا مناص من استحضار بيان النبوة عند كل سورة بل عند كل آية فإنه وحي يفسر الوحى .

دور سبب النزول :

وهو أيضا من القرائن الخارجية الهادية إلى تحديد مقاصد السور لا سيما الأسباب المذكورة في مطالع السور ، كما جاء في صدر سورة الأنفال فيما حكى من تنازع المسلمين في الغنائم ، وغيره من المواضع ،

فـلا مناص مـن الإحاطة بـه فـي مواضعه لتنوير ما استغلق من المعاني لا سيما عند مطالع السور .

هذا والذي توصي به هذه الدراسة أن يكون المنهج حين استكشاف العلاقات في سور القرآن على ما يلي من هذه الخطوات :

(موقـع السـورة في الكتـاب العزيـز ـ المقصـد ـ المطلـع) (مقـداره ـ مفرداته ـ أحوال تراكيبه) عناصر البيـان عـن المقصـد وصـلتها بـالمطلع ، ويقصد بهذه الخطوة تحليل آيات السورة التي تجتمع تحت عنوان واحـد ، ويحاول الكشف عن علاقتها بالمطلع في ضوء ما مضى بيانه والله أعلم .

* * *